الفصل الخامس

توزيع الكتاب والمكتبات

يمثل توزيع الكتاب الحلقة الأخيرة فى سلسلة صناعة الكتاب، وبه يكتسب النشر معناه، و لفروق بين توزيع كتاب وآخر هى التى تعبر عن مدى نجاح الكتاب ونجاح نشره، والفروق بين عدد الكتب الموزعة من الكتاب فى مجتمع وعدد مثيله فى مجتمع آخر تمثل الفروق الحضارية بين المجتمعين، وتمثل تطور النشر فى كل منهما.

والعوامل التى تؤثر فى توزيع الكتب تكاد تتشابه مع العوامل التى تؤثر فى توزيع الصحف، من حيث الزيادة والنقصان، ويمكن إجمال العوامل التى تزيد من توزيع الكتب فيما يلى:

١ – جودة التأليف: وتشمل جودة التأليف شهرة المؤلف، وتفوق الكتاب للمؤلف غير الذائع الصيت، كما تشمل الترجمة أيضا، وفى الترجمة تنحصر الجودة فى حسن الترجمة من جانب، وشهرة النص المترجم وشهرة مؤلفه من جانب آخر، كما تشمل شهرة المترجم من جانب ثالث، ولا شك أن الكتاب الممتاز لابد أن ينجح نجاحًا كبيرًا حتى لو كان لمؤلف ناشىء، وإن كان فى هذه الحالة يستغرق رواجه وقتًا طويلًا نسبيًا، كذلك من صور جودة التأليف الكتب الحاصلة على الجوائز.

٢ – الإعلان عن الكتاب: إن الإعلان عن الكتاب عند صدوره يمثل شهادة ميلاده، وفى مجال الإعلان عن الكتاب يمكن أن نضيف نشر أخبار عن صدور الكتب فى صفحات الأدب والثقافة بالصحف، وفى برامج الراديو والتليفزيون المعنية بهذا اللون من ألوان الثقافة، كذلك يعد فقد الكتب فى وسائل الإعلام إضافة إلى الإعلان عنه، كما يضاف إلى الإعلان عن الكتب عرضها فى واجهات مكتبات البيع، وعند باعة الصحف للكتب التى تقوم شركات توزيع الصحف بتوزيعها.

وفى واقعنا المحلى المصرى تقف أمام الإعلان عن الكتب عقبة رئيسية هى ارتفاع أسعار الإعلانات بصفة عامة، واعتبار الكتاب سلعة عادية فلا يقدم له التخفيض الكبير فى سعر الإعلانات، كذلك يقف ضيق حجم سوق الكتاب عقبة أخرى أمام الإعلان عن الكتاب، لأن تكلفة الإعلان لا تتناسب مع الأعداد الهزلية التى تطبع من الكتب بصفة عامة، هذا إلى جانب عدم تقدير كثير من الناشرين لأهمية الإعلان عن الكتاب وتقوم شركات توزيع الصحف بنشر إعلان مجانى عن الكتاب الذى تتولى توزيعه فى ركن ثابت صغير تحت عنوان مع الباعة أو صدر اليوم أو ما شابه ذلك من العناوين، وتحظى الكتب التى تنشرها بعض المؤسسات الصحفية بنصيب وافر من الإعلانات، لأن المؤسسة الصحفية هى ناشر الكتاب، ومثال ذلك كتاب اليوم وكتاب الهلال، ومن التقاليد غير المنطقية فى الصحف المصرية عند نشر خبر عن صدور كتاب جديد عدم ذكر الناشر وعدم ذكر سعر الكتاب، برغم أن اسم الناشر جزء من الخبر وبرغم أن القارىء لا تتم الخدمة الصحفية له إلا بذكر اسم الناشر ليشترى الكتاب إذا أراد،

وحجة القائمين على نشر تلك الأخبار أن ذكر الناشر أو السعر يعد إعلانا عن الكتاب، وهذا فيه تعسف كبير، ولم تفلت من قبضة هذا التقليد غير المنطقى إلا جريدة الجمهورية فى العقد التاسع من القرن العشرين، فهى تنشر خبر صدور الكتاب واسم الناشر وسعر الكتاب.

٣ – سعر الكتاب: يمثل سعر الكتاب عاملًا جوهريًا فى زيادة التوزيع أو قلة التوزيع، فالكتاب الرخيص الثمن تفتح أمامه أبواب التوزيع إذا توفرت له شروط النجاح، ولعل فى سلسلة عالم المعرفة التى تصدرها الكويت أوضح مثل على ذلك، إن أعداد الكتب التى تصل إلى مصر وإلى السودن منها لا تبقى فى السوق إلا دقائق، بل إنها تباع فى السوق السوداء أحيانا، ويحظى بها من له صديق من باعة الصحف فى أحيان أخرى، وربما يكون من باب المقارنة غير العادية أن يقارن سعر كتاب تدعمه حكومة بترولية بسعر كتاب يحدد ناشر عادى سعره، ولكن فى كل الأحوال كلما قل سعر الكتاب زاد التوزيع، ولكما ارتفع السعر قل التوزيع.

٤ – سهولة الشراء: نعنى بسهولة الشراء أن يصبح الكتاب فى متناول القراء أو بمعنى آخر يمكنهم الحصول عليه بالشراء فى سهولة ويسر، فكلما كثر عدد مكتبات البيع وغطت كافة الأحياء والمدن كلما زاد توزيع الكتاب، وكلما زادت نسخ الكتاب مع باعة الصحف – فى حالة التوزيع عن طريق شركات توزيع الصحف – كلما زاد توزيعه، وكلما أقيمت معارض متنقلة فى الكليات الجامعية والمدارس والمصانع وما شابه ذلك من وحدات الإنتاج والخدمات كلما زاد التوزيع.

٥ – المعارض السنوية للكتاب: تمثل المعارض السنوية للكتب عاملًا من عوامل زيادة التوزيع إلى جانب ما تمثله من أهداف ثقافية وخدمات لصناعة الكتاب ونشره بصفة عامة، ففى هذه المعارض تكاد تجتمع كافة عوامل زيادة التوزيع، فجودة التأليف يمثلها الحشد الكبير للكتب فى المعرض، وجانب الإعلان عن الكتب يمثلها المعرض فى حد ذاته، وجانب سعر الكتاب يمثله التخفيض الذى تحرص معظم دور النشر على سريانه خلال فترة المعرض على سعر الكتب، وجانب سهولة الشراء تمثله إجراءات البيع فى المعرض أصدق تمثيل، وإلى جانب كل ذلك فإن ذهاب القراء إلى معارض الكتب يمثل حالة الاستعداد والتهيؤ للشراء.

وتعد ظاهرة المعارض السنوية للكتب فى معظم بلدان العالم امتدادًا لما شهده عصر النهضة الأوربية من أسواق الربيع والخريف للكتب، فقد اعتاد تجار الكتب[1] من ناشرين ووسطاء أن يجتمعوا مرتين فى كل عام فى الربيع والخريف بسوق مدينة «فرانكفورت» حيث يزاولون تجارة الكتب عن طريق المبادلة ورقة بورقة، حيث كانت المجالات التجارية تفيض بالحياة والعمل، ثم فاق سوق «ليبزج» بعد ذلك سوق «فرانكفورت».

ولا تقتصر أهمية المعارض السنوية للكتب فى أيامنا هذه على زيادة توزيع الكتاب، بل تعد عاملًا هامًا فى تنمية إنتاج الكتاب بصفة عامة، إنها تعرض الكتب، وتعرض آلات الطباعة الحديثة، وتعقد حلقات دراسية حول مشاكل الكتاب ونشره، وتثرى الرأى العام بالمعلومات والآراء والأفكار حول إنتاج الكتب ومشاكل إنتاجها وتسويقها.

---

(١) سفندال مرجع سابق – ص ١٥١.

٦ – الطبعات الشعبية: تعد جودة الطباعة وجودة إخراج الكتاب وبخاصة الغلاف من عوامل زيادة توزيع الكتب، ولكن هذا العامل المتمثل فى جودة الطباعة والإخراج يمثل قاسمًا مشتركًا فى كافة أنواع الكتب، وتبقى الطبعات الشعبية الزهيدة الثمن أو المنخفضة السعر عن الطبعات الفاخرة.. تبقى لها سمة التميز فى زيادة التوزيع، ومرد ذلك إلى تلبية الطبعة الشعبية بسعرها المنخفض نسبيًا للقدرات الشرائية لجماهير عريضة من القراء مثل الطلبة وصغار الموظفين، وهم من أكثر القراء حماسة للسعر المنخفض.

ويدخل فى نطاق الطبعات الشعبية دعم الحكومات للكتب بما يخفض سعرها كثيرًا، وكذلك دعم بعض الهيئات والمؤسسات لنشر الكتب بتضامنها فى نفقات النشر أو بنشر بعض إعلاناتها فى صفحات فى آخر الكتاب، ومن الجدير بالملاحظة أنه فى البلدان الرأسمالية حيث تسود فى السوق قوانين العرض والطلب تقدم البنوك وشركات الطيران والمؤسسات الاقتصادية معونات لسلاسل من الكتب لترجمتها ونشرها عالميًا، وذلك إسهاما منها فى نشر الفكر القومى والتراث الحضارى خارج أوطانها.

٧ – أسباب ثانوية أخرى: هنالك أسباب ثانوية تزيد من توزيع الكتاب مثل مناخ الديمقراطية الذى يساعد على حرية النشر، ومثل دور الوسائل الإعلامية المختلفة فى عرض الكتاب ونقده، ومثل القدرة الشرائية للأفراد، ومثل درجة التحضر التى وصلها المجتمع والتى تبين تقديره للكتاب.

وتختلف الأسباب الثانوية التى تزيد مع توزيع الكتب من مجمع إلى آخر، ومن عصر إلى عصر، فقد زاد توزيع الكتب خلال الحرب العالمية الثانية لاضطرار الناس إلى البقاء فى بيوتهم بسبب الغارات الجوية، وتعطل كثير من دور اللهو أو تمضية أوقات الفراغ، كذلك يمكننا أن نتصور دور المناسبات فى زيادة توزيع نوع من الكتب أو فى زيادة توزيع كتاب معين، ففى موسم الحج يكتسح معدلات التوزيع كتاب عن مناسك الحج، وفى موسم تقديم الإقرارات الضريبية يحدث الشىء نفسه لكتاب عن آخر تعديلات لقوانين الضرائب، وهكذا...

أما العوامل التى تقلل من توزيع الكتب فيمكن اجمالها فيما يلى:

١ – الأمية: تمثل الأمية العائق الأول أمام توزيع الكتاب فهى تخرج من البداية أصحابها من سوق الكتاب، وكلما تفشت الأمية كلما أصبحت فرصة توزيع الكتاب قليلة، وتصل إلى حد الاستحالة فى القرن التى ينذر فيها عدد القارئين.

ولكن لا ينبغى أن تخدعنا زيادة نسبة الأمية فى المجتمعات النامية باعتبارها عاملًا رئيسيًا فى تقليل نسبة توزيع الكتاب، فلا مثل مصر، فإذا قلنا إن نسبة الأمية فى مصر مرتفعة فهذا حق، ولكن إذا قلنا إنها السبب الرئيسى أو السبب الوحيد لتعثر توزيع الكتاب فإننا نقع فى خطأ فادح، فإذا نظرنا مثلًا إلى عدد الجامعات فى مصر الذى يزيد عن عشر جامعات، وإذا نظرنا إلى عدد المتقدمين للشهادة الثانوية فى كل عام والذى يبلغ ربع مليون، وقارنا ذلك بتوزيع الكتاب الثقافى العام الذى لا يتجاوز ألفى نسخة أو ثلاثة آلاف نسخة أو بضعة آلاف لا تزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة فى أحسن الظروف، يمكننا أن ندرك – على الفور – أن هناك من الأسباب ما هو أقوى من الأمية فى تعثر توزيع الكتاب.

٢ – انخفاض القدرة الشرائية لدى القراء: مما يجعل ثمن الكتاب عبئًا اقتصاديًا، وقد يخفى ظاهر مستوى المعيشة حقيقة القدرة الشرائية للقراء، فإن من يرى إقبال الناس فى مصر مثلاً على السلع التموينية يظن أن الكتاب لمن يريد شراءه ليس عبئًا، ولكن المدقق للأمر يرى صورة مختلفة، لأن قارئ الكتاب لا ينتمى – فى الأغلب – إلى القادرين على الشراء فى ظل الانفتاح المصرى خلال العقد الثامن من القرن العشرين وأوائل العقد التاسع، فنتيجة لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية ساء توزيع الدخل القومى وأصبح الجهلاء يكسبون أكثر من المثقفين والمتعلمين الذين يمثلون السوق الحقيقى للكتب.

وعلى أية حال فإن انخفاض القدرة الشرائية للقراء أمام الزيادة المستمرة فى تكلفة الكتب تمثل سببًا واقعيًا لقلة توزيع الكتب.

٣ – المنافسة الإعلامية والاهتمامات المختلفة: يرتبط هذان السببان ببعضهما ارتباطًا وثيقًا فى مجال التأثير على توزيع الكتب، لأن وسائل الإعلام هى التى تجعل من الاهتمامات منافسًا لاهتمامات القراء بالكتب، وهى التى تصرف الأنظار عن الكتاب بتشجيع هذه الاهتمامات ومد نطاقها، ومثال ذلك اهتمامات الناس بمباريات كرة القدم، إنها فى حد ذاتها تعد عاملاً فى تقليل توزيع الكتب، ولكن إذاعة الراديو والتليفزيون لهذه المباريات وإفراد الجرائد صفحات يومية لها يضاعف الأثر.

والواقع أن المنافسة الإعلامية تمثل سلاحًا ذا حدين فى توزيع الكتاب، فإذا أفسحت وسائل الإعلام صدرها لنشر أخبار الكتب، ولنقد الكتب وعرضها أصبحت من عوامل زيادة التوزيع، أما إذا كانت الكتب غريبة أو شبه غريبة فى صفحات الجرائد والمجلات وفى برامج الراديو والتليفزيون أصبحت بحكم اجتذابها للجمهور من وسائل تقليل توزيع الكتب، والمعروف أن جمهور وسائل الإعلام مشترك، وأن الوسائل يستحوذ بعضها على جمهور البعض، ولكن ربما ساعدت بعض الوسائل على كثرة جمهور وسيلة أخرى، فقد تبين لكثير من الباحثين أن الراديو عند انتشاره لم يقض على الصحف بل إن القارئ الذى يستمع إلى الأخبار فى الراديو أصبح يحب أن يقرأها مفصلة ومكتوبة فى الصحيفة.

ويأتى التأثير السلبى لوسائل الإعلام المنافسة للكتاب على توزيعه من المناخ العام الذى تخلقه هذه الوسائل فى اهتمامات الناس، وتركيزها حول مباريات كرة القدم، والتسلية بصفة عامة، هذا إلى جانب الضغوط اليومية للحياة العادية للقراء من مشاكل تموين ومواصلات وإسكان وما شابه ذلك مما يصرف الناس عن قراءة الكتب.

٤ – أسباب ثانوية أخرى: من الأسباب الثانوية التى تقلل من توزيع الكتاب نشر الكتب الهابطة، ورداءة الطباعة والإخراج، وكثرة الكتب التى تتملق الحكام، وغيبة الحرية فى المجتمع.

نفقات التسويق ونسب الخصم:

نحن نستخدم كلمة التسويق فيما يتعلق بنفقات توزيع الكتب لأنها أدق، فرجال الإدارة ورجال الاقتصاد يفضلون كلمة التسويق، ويقولون: إنها تشمل كافة الجهود المتعلقة ببيع الكتاب، وليست عملية بيعه وحسب، وعلى ذلك فإن نفقات الشحن، ونفقات الإعلان عن الكتاب تندرج تحت نفقات التوزيع، وهناك إصطلاح سائد فى توزيع الكتب يطلق عليه نسبة الخصم، وهى النسبة من سعر بيع

نسخة الكتاب التى يتقاضاها من يتولى البيع، الذى هو عادة تاجر التجزئة، أى صاحب مكتبة بيع الكتب فى واقعنا العربى المعاصر، أو شركة التوزيع كما هو الحال فى شركات توزيع الصحف الكبرى فى مصر: الأهرام، الجمهورية الأخبار، أو مصدر الكتب للخارج أو غير ذلك ممن يقومون ببيع الكتاب، وتتفاوت نسبة الخصم تفاوتًا كبيرًا فهى ١٠٪ أو دون ذلك فى الكتب المدرسية وما شابهها، وهى ٤٠٪ أو أكثر فى الكتب المصدرة، وهى بين ٢٠٪ و٢٥٪ فى الأغلب والأعم من الكتب.

والعلاقة الصحية والطبيعية بين توزيع الكتاب ونسبة الخصم تتلخص فى أنه كلما زاد التوزيع أمكن تخفيض سعر الكتاب بتخفيض نسبة الخصم، أو أمكن إجراء التخفيض على السعر المعلن على الغلاف، وهذا ما يحدث فى معارض الكتب السنوية والموسمية، وزيادة نسبة الخصم عن ٢٥٪ من شأنها أن تحدث خللًا فى توازن موارد الكتاب ومصروفاته.

ويعتبر موزع الكتاب فى الموقف الأقوى دائمًا فى أطراف عملية النشر، لأن دوره يكاد يسبه دور الصياد فى تجارة الأسماك. فإن أطراف العمل فى إنتاج الكتاب ينتظرون إيرادات التوزيع ليحصل كل منهم على نصيبه، لذلك فإن نسب الخصم تخضع غالبًا لقرار الموزع أو على الأقل توضع مطالبه فى تحديد نسبة الخصم موضع الاعتبار، ولا شك أن الإقبال على الكتاب وكثرة عدد الموزعين وغير ذلك من العوامل تمثل عوامل التوازن فى تحديد نسبة الخصم.

مشكلة توزيع الكتاب المصرى:

ليست هناك مبالغة فى القول بأن مشكلة توزيع الكتاب المصرى هى مشكلة النشر فى مصر، وذلك لأن عناصر إنتاج الكتب الأخرى تجد حلولا إذا زاد توزيع الكتاب المصرى، وبعض العناصر لا تمثل مشكلة فى مصر من الأساس، فالمؤلفون المصريون يقفون فى الصف الأول بين أقرانهم من أبناء العالم الثالث كما وكيفا، وصناعة الكتب فى مصر قطعت شوطًا تاريخيًا لا بأس به وكثير من ناشرى القطاع الخاص احتفلوا بالعيد المئوى لإنشاء دورهم، وبعضهم على وشك الاحتفال بمرور المائة عام، والمطابع فى مصر على درجة من التجهيزات والكفاءة تمكنها من إنتاج الكتاب على المستوى المطلوب، والمشكلة الرئيسية فى النشر المصرى هى التوزيع، ذلك التوزيع الذى لا يتناسب مع قدرات وإمكانات النشر من جانب، ولا يتناسب مع إمكانات السوق المحلى بأعداده الهائلة من القارئين الكاتبين، أو إمكانات السوق العربى باعتبار وحدة الثقافة العربية.

ويمكننا بصفة عامة أن نحصر أهم نقاط مشكلة توزيع الكتاب المصرى فى ثلاث نقاط هى:

* ضيق حجم السوق.
* معوقات التصدير.
* تقليص المكتبات العامة وضعف قدراتها الشرائية.

وسنتناول كلا منها بشىء من التفصيل.

١ - ضيق حجم السوق:

مثلما يحدث فى بلادنا ببلوغ بعض الأسطوانات الشعبية إلى بيع مليون أسطوانة، يحدث فى توزيع

الكتاب فى بلدان العالم المتقدم، فكتاب التحدى العالمى للصحفى الفرنسى جان جاك شرايبر بيع منه أكثر من مليون نسخة فى العام الأول من صدوره، وهذا التوزيع الهائل للكتب فى البلدان المتقدمة هو الذى دفع بصناعة الكتاب إلى الأمام، وفى المقابل فإن قلة التوزيع حيث يطبع من الكتاب عندنا ما بين ألفين إلى خمسة آلاف تمثل عائقًا أمام تقدم صناعة الكتاب، فالتكنولوجيا الطباعية الحديثة باستخدامها الآلية فى إنتاج الكتاب تستطيع أن تقدم لنا الإتقان والجودة والسرعة فى وقت واحد، ولكن يمنعنا من استخدامها فى إنتاج الكتاب أنها تتطلب أن يكون حجم المطبوع من الكتاب كبيرًا وإلا أصبحت غير اقتصادية، فعلى سبيل المثال لا يصبح إنتاج الكتاب اقتصاديًا إلا إذا تجاوز ٥٠ ألف نسخة، وهذا الرقم شبه مستحيل فى النشر المصرى، وقد عقدت جريدة الأهرام ندوة فى فبراير ١٩٨٣ لمناقشة مشكلة الكتاب كانت فى جوانب عديدة منها تبرز مشكلة ضيق حجم السوق، وجوانب أخرى من الندوة تبين لنا الأسباب الكامنة وراء ضيق حجم السوق، ومن ثم مشكلة النشر بصفة عامة، قال الناشر إبراهيم المعلم[٢] فى الندوة: إن عدد القراء فى مصر يتناقص عن عددهم منذ ثلاثين سنة إذا قورنت أعداد القراء بنسب الزيادة فى تعداد السكان فضلا عن زيادة النسبة فى التعليم، وأضاف بأن الجمارك مشكلة بالنسبة للنشر المصرى، ولأن وسائل ومواد الكتاب تستورد فلابدّ من دفع رسوم جمركية عليها، هذه الرسوم الجمركية تصل إلى ٥٠٪ مثل الأقلام التى تستعمل فى الطباعة، وتصل الرسوم الجمركية فى ماكينات الطباعة إلى ٧٥٪ وفى الكارتون المستخدم فى التجليد إلى ٢٠٠٪، وقال: إنه ترتب على ذلك ارتفاع تكلفة إنتاج الكتاب، وحين يرتفع إنتاج الكتاب تقل إمكانية تصديره، وحين تقل إمكانية تصديره، يقل عدد النسخ المطبوعة منه، وحين يحدث هذا يرتفع ثمن الكتاب وحين يرتفع ثمن الكتاب يقل عدد القراء، وهكذا تصبح الدائرة مفرغة خبيثة، أما الناشر سمير سعد فقد ذكر فى الندوة أن الناشر يتعرض لمشكلتين، اليد العاملة، وآلات الطباعة، واليد العاملة صارت نادرة بسبب هجرة العمال المهرة إلى الدول العربية، وآلات الطباعة الحديثة تحتاج إلى عمال يستوعبون العمل عليها وهذا غير متاح لهجرة العمال، ومن الاقتراحات الشاملة[٣] لسوق الكتاب المصرى ما يلى:

(أ) عقد اتفاقية بين الدول العربية تسمح بدخول الكتب فى كل الحالات ويمكن فقط حظر دخول الكتب السياسية إذا شاءت هذه الدول أو تلك.

(ب) الاهتمام بالنشرة الببلوجرافية المصرية.

(جـ) إنشاء مصانع جديدة للورق.

(د) تخفيض الرسوم البريدية، والإعفاءات الجمركية بالنسبة للكتب.

(هـ) زيادة أجور المؤلفين والمترجمين.

(و) إنشاء مراكز تدريب للطباعة ودعم مركز تنمية الكتاب.

(ز) التخطيط والتنسيق بين دور النشر، وترجمة عيون الفكر العالمى وترجمة روائع الإنتاج المصرى إلى اللغات العالمية.

---

(٢) جريدة الأهرام بتاريخ ١١ - ٢ - ١٩٨٣.

(٣) لمعى المطيعى جريدة الأخبار بتاريخ ٣١ - ٣ - ١٩٨٣.

٢ – معوقات التصدير:

يمثل الكتاب الجانب الأكبر والأهم فى الصادرات المصرية من مختلف المطبوعات، ويبين الجدول التالى الصادرات من مختلف المطبوعات خلال عام ١٩٧٦ بالمقارنة مع عام ١٩٧٥ كما وردت بالتقرير السنوى لغرفة صناعة الطباعة والتجليد ومنتجات الورق[٤].

الأصناف	١٩٧٥		١٩٧٦	
	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه
صحف ومجلات	٢٢٣٢	٧٠٣٥٦١	٢٥٣٥	٨١٠٣٢٦
علب وأكياس	—	—	١٣	٧٦٤٦
دفاتر وكراسات	٥١	٥١٧٣٠	٤١	٥٢٩٤١
الكتب	٣١٣٢	٣٧٦٩٠٧٣	٢٥٢٣	٣٥٦٦٨٥٥
علب لحفظ الأوراق والرسائل	*	٢٥	—	—

* أقل من ٥٠٠ كيلوجرام

يتضح من الجدول السابق أن الصادرات المصرية من الصحف والمجلات حققت ارتفاعًا ملحوظًا عام ١٩٧٦ حيث بلغت ٢٥٣٥ طنًا قيمتها ٨١٠,٣ ألف جنيه مقابل ٢٢٣٢ طنًا فى عام ١٩٧٥ قيمتها ٧٠٣,٦ ألف جنيه.

(٤) التقرير السنوى لغرفة صناعة الطباعة والتجليد ومنتجات الورق (١٩٧٧).

وفيما يلى بيان الصادرات المصرية من الكتب خلال عام ١٩٧٦ مقارنًا بعام ١٩٧٥ حسب البلاد المستوردة.

الكمية بالطن / القيمة بالجنيه

البلد	١٩٧٥		١٩٧٦	
	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه
سوريا	١٣	١١٠٠٩	٣٥	٣٤٠٨٨
الأردن	٥٧	٤٤٩٨٤	٤٦	٤٠٣٠٩
الجزائر	٥٥	٥٢٨٢٩	١٩٧	١١٨٦٣٣
العراق	٦٣	٧٣٠٥٣	٥٦	٧٦٥٦٤
السعودية	٢١١	٢٢٣١٤١	٥٤٩	٦٣٣٣٧٠
السودان	١٤٦	٢٤٠٣٤٤	١٦٨	٢٣٥٥٩٥
اليمن	٧	٧٤٥٧	٤٨	٤٤٧٥١
تونس	١٠	١٥٣٦٥	٢٧	٣٨٠٢٧
لبنان	٢١٠	١٨٦٤٧٢	٢٦	٢٠٦٠٢
ليبيا	١٩٦٧	٢٢٠٦٦٩٠	٧٤١	١٢٩٢٤٥٥
المغرب	٥١	٤٧٧٨٥	٣٨	٣١٤٢٤
الكويت	٩٢	١٣٧١١٧	١٠٨	١٧٤٠١٦
جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية	١٧	٩٦٤١	٢٧	٣٦٠٩٢
الاتحاد السوفيتى	٣٤	٣٤٣٧١	٤٩	٤٢٠٤٣
بلغاريا	*	٤٠	—	—
تركيا	*	١٠٠	١٢	١٠٦٣٠
بريطانيا	٧	٧٦٠٣	١	٢١١٩
الدانمرك	*	٩٣	—	—
ألمانيا الاتحادية	٢	٢٤١٠	٢	١٠٨١٩
فرنسا	٧	٥٨٨٢	٤	٣٤٩٤
هولندا	١	١١٠٩	٤	١٧٧١٦
الملايو	٥	٣٧٦٤	٤	٣٦٦١
البحرين	٧٦	١٠٥٤٣٥	١٧٢	٤١٤٧٩٤
الهند	*	٩٩٣	٤	١١٥٤٥

الكمية بالطن / القيمة بالجنيه

البلد	١٩٧٥		١٩٧٦	
	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه
اليابان	*	٧٠	*	٢٢٨
أندونيسيا	—	—	٣٤	٣٨٣٧٠
إيران	٤	٢٥٣٦	٣	٢٠٦٦
تايلاند (سيام)	١	٣٩١	*	١٧٦
سنغافورة	٢	١٩٣٦	٣	١٨٨٣
باكستان	٥	٤٦٥٥	*	٨٧٨
سيلان	*	٢٠	*	*
قطر	٢٣	٢٣٢٦٨٩	١٣	٤٧٠٩٦
مسقط عمان	٢	٥٤٦١	٤	٨٥٧٦
إمارات ساحل عمان	٢٩	٥٠٢٤١	٦٣	١٠٢٢٠٢
أثيوبيا	٢	١٣٨٣	*	١٢٤
أوغندا	٢	٣٣٣٦	—	—
الصومال	٢	١٨٧٥	١	٨١٤
السنغال	١	٩٥٥	—	—
ساحل العاج	١٥	٧٥٢٨	١١	٨٣٩٨
موريتانيا الإسلامية	٢	٢١٦٦	*	٣٢
سيراليون	*	٧	*	٣٤
غانا	٤	٢٦٤٩	٢	١٨٥٥
نيجيريا	٣٣	٢٨٢٩٦	٦٤	٥٥٢٧٢
الصومال	*	١٧٤	١	٨٥٠
تنزانيا	*	٧٢	١	٥١٨
أمريكا	٢	١٨٢٠	١	٦٧٦
استراليا	*	١٥٨	*	٣٠٥
بلاد أخرى	٢	٢٩٦٨	٤	٤٠٩٥
الجملة	٣١٣٢	٣٧٦٩٠٧٣	٢٥٢٣	٣٥٦٦٨٥٥

* أقل من ٥٠٠ كيلوجرام.

obeikandl.com

ويبين الجدول التالى إجمالى الصادرات المصرية من الكتب خلال تسعة أعوام مقارنا بعام ١٩٥٢:

السنة	الكمية بالطن	القيمة بالجنيه	الزيادة بالنسبة لعام ١٩٥٢		الزيادة أو النقص بالنسبة للعام الماضى	
			فى الكمية ٪	فى القيمة ٪	فى الكمية ٪	فى القيمة ٪
١٩٥٢	٨٣٠	٢٧٨٤٩١				
١٩٦٨	٢٦٨٩	١٤٧٠٩٢٧	٢٢٤,٠	٤٦٨,٢		
١٩٦٩	١٨٩٦	٩١١٧٩٤	١٢٨,٤	٢٢٧,٤	+ ٣٩,٥	+ ٣٨,٠
١٩٧٠	٢٤٦٦	١٦٠٥٣٠٠	١٩٧,٠	٤٧٦,٤	+ ٣٠,٠	+ ٧٦,٠
١٩٧١	١٧٧٥	١٠٩٥٩٥٢	١١٣,٨	٢٩٣,٥	+ ٢٨,٠	- ٣١,٧
١٩٧٢	٤٠٦٦	٢١٨٩٣٥٣	٣٨٩,٨	٦٨٦,٠	+ ١٢٩,٠	+ ٩٩,٧
١٩٧٣	٦٢١٢	١١٩٩٣٥٤	١٦٦,٥	٣٣٠,٧	- ٤٥,٦	- ٤٥,٢
١٩٧٤	٣١٨٥	٢٣٩٨٦٣٦	٢٨٣,٧	٧٦١,٣	+ ٤٤,٠	+ ٩٩,٩
١٩٧٥	٣١٣٢	٣٧٦٩٠٧٣	٢٧٧,٣	١٢٥٣,٤	- ١,٧	+ ٥٧,١
١٩٧٦	٢٥٢٣	٣٥٦٦٨٥٥	٢٠٤,٠	١١٨٠,٨	- ١٩,٤	- ٥,٤

obeikandl.com

تبين لنا هذه الإحصائيات أن مجال التصدير أمام الكتاب المصرى يمكن أن يكون فعالاً، ولكن المشكلة هى المعوقات التى تقف أمام التصدير، ويمكن بصفة عامة أن نحصرها فى نوعين من المعوقات، أولاهما المعوقات الإدارية المصرية، وثانيهما المعوقات على الجانب الآخر فى الدول المستوردة للكتاب المصرى مثل الرقابة الشديدة ومثل مشاكل تحويل العملة ومثل المقاطعة السياسية للحكومة المصرية التى تنعكس على الكتاب بصفة مباشرة.

وفى ندوة الأهرام عن مشكلة الكتاب أثيرت مشكلة عوائق تصدير الكتاب ولخص الناشر عبدالحميد غريب المشكلة فى ثلاث نقاط:

(أ) قال المشرع المصرى: تعفى الصحيفة والدورية والكتاب من شرط استرداد القيمة.. وعلى الرغم من ذلك نرى تصدير الكتاب مقيدًا بفترة زمنية، كانت خمس سنوات ثم صارت ثلاث سنوات إذا لم يسترد بعدها حصيلته قدم المصدر إلى نيابة الأموال العامة.. علمًا بأن تصدير الكتاب يختلف عن تصدير أى سلعة أخرى.

(ب) تدعى دور النشر المصرية للاشتراك فى معارض فى الدول العربية ومن شروط الاشتراك إرسال نسخة أو نسختين من المعروض للفحص والمراجعة، ليرى هل يتناسب هذا مع عرضها فى المعرض أم لا.. وتعطى الهيئة المصرية للكتاب للمصدر المصرى الحق فى ١٠٠ جنيه كتب فقط بدون خصم فى العام، وهذا المبلغ ضئيل جدًا.

(جـ) أحجم المصدر المصرى عن عرض كتبه وفتح أسواق جديدة خوفًا من نيابة الشئون المالية، وأعتقد أن كثيرًا من الناشرين مقدم للنيابة حتى الهيئة المصرية العامة للكتاب ودار المعارف، وهؤلاء قطاع عام.. ولا سبيل للخروج من أزمة الكتاب إلا بإعادة النظر فى كافة البنود الجمركية المتصلة بإنتاج الكتاب، وإجراء مراجعة شاملة لجمارك الورق ومستلزماته بصفة عامة ومثل آلات الطباعة والحبر ومستلزماته، وهذا هو الطريق لخفض سعر الكتاب المصرى.. حتى يمكنه أن ينافس الكتب العربية، وليس غريبًا اليوم أن سعر الكتاب وتكلفة إنتاجه اليوم فى مصر أعلى بكثير من إنتاجه فى دول أخرى والدليل على ذلك أن بعض دور القطاع العام فى النشر لجأت إلى إيطاليا واليابان وأسبانيا واليونان لطبع كتبها فى الخارج.

وعن اقتراحات الحلول لمعالجة معوقات تصدير الكتاب يقول الدكتور حسين الغمرى[٤١] رئيس مجلس إدارة شركة التوزيع القومية: لقد انحسرت أسواق التصدير أمام الكتاب المصرى حتى كاد يختفى تمامًا من الأسواق العربية، ولقد حاولت لجنة النشر بالمجلس الأعلى للثقافة أن تدق ناقوس الخطر وأن تنبه إلى خطورة الموقف مطالبة بتخفيض القيود والإجراءات التى يلتزم بها مصدر الكتاب فى مصر، فالفواتير يجب أن تراجع فى مكتب مختص بالهيئة العامة للكتاب وكثيرًا ما يطلب هذا المكتب نسخة من كل كتاب لإمكان المراجعة، وهى مسألة تستغرق أيامًا إذا لم يكن لأحد موظفى هذا المكتب اعتراض وشروط إذا اعترض على الأسعار أو نسب الخصم أو شروط البيع، وإذا كان بين الكتب المصدرة كتاب دينى فالأمر يتطلب موافقة الأزهر الشريف على تصدر هذا الكتاب المطروح للتداول فى

---

(٤١) التقرير السنوى لغرفة صناعة الطباعة والتجليد ومنتجات الورق (١٩٧٧).

مصر. كما لو كان تصدير بضع نسخ أكثر خطورة من تداول المئات منها فى السوق المحلية، ثم إقرار باسترداد القيمة خلال فترة معينة، ثم الإجراءات الجمركية، وأما إذا تأخر المستورد فى سداد قيمة الرسالة فتتوالى الإنذارات للمصدر ثم التحويل إلى النيابة والمحاكمة، لذا نجد المصدر المصرى يقصر معاملاته على عدد محدود جدًا من المستوردين الذين يطمئن إلى أنه لن يحاكم جنائيًا إذا تقاعسوا عن السداد.

ونجد المصدر المصرى يعتذر عن تنفيذ أو يهمل تنفيذ كثير من الطلبات التى تصل إليه إذا كان حجم الطلب مما لا يساوى من وجهة نظره - ما سيبذله من جهد وجرى وراء المختصين - هنا وهناك، لقد فتح هذا الوضع الباب على مصراعيه أمام مستوردى الكتاب المصرى، ووجد المستوردون وتجار الكتب أن التعامل فى الكتاب المزور فى لبنان وإيران أيسر وأكبر كسبًا من محاولة استيراده من مصر، لقد دعت لجنة النشر إلى معاملة الكتاب المصرى كالصحيفة أو المجلة من حيث التيسيرات النقدية والجمركية وكافة إجراءات التصدير.

٣ - تقليص المكتبات العامة وضعف قدراتها الشرائية:

المكتبات العامة فى المحافظات والبلديات والبنادر وفى الهيئات وفى المدارس والجامعات هم المشترون الثابتون للكتاب، وهذه المكتبات تشبه الاشتراكات فى الصحف، وفى مصر حدثت ظاهرة شاذة خلال العقدين السابع والثامن من القرن العشرين فى مجال المكتبات العامة هذه وهى تقليص عددها من جانب وعدم اعتماد ميزانيات للباقى منها من جانب آخر، وبذلك لم تصبح من مشترى الكتب بشكل أو آخر، وبرزت المشكلة فى أوائل العقد التاسع من القرن العشرين بصورة تدعو إلى القلق واليأس، فقد كانت المكتبات المدرسية لها اعتمادات مالية وكان الناشرون يعرضون كتبهم عليها فتشترى الوزارة مركزيا وتشترى المكتبات مباشرة من ميزانيتها المحلية.

المكتبات:

استخدامنا لمصطلح المكتبة فى هذا المجال يعنى المكتبة التى تضم عددًا من الكتب، ولها نظام فى الإعارة الداخلية والخارجية، ولها نظام فى الفهرسة والترتيب، وليست الحوانيت التى تبيع الكتب، إننا نسميها متاجر التجزئة لبيع الكتب[٥].

ويذهب أساتذة المكتبات إلى تسمية المكتبة وفق أهدافها، فالمكتبة الوطنية هى مكتبة القطرة بأسره، وتؤدى الأغراض الرئيسية التالية:

١ - الجمع، ويشمل حصر الإنتاج الفكرى بمختلف صوره من كتب ومجلات وجرائد ونشرات، ومواد تسجيلية ، ومواد مصورة، وخرائط أو ما شابه ذلك.

٢ - التنظيم، ويقصد به تنظيم مقتنيات المكتبة وفق القواعد المكتبية لتصبح معدة للاستخدام.

٣ - التعريف، ويقصد به استخدام وسائل النشر للتعريف بالإنتاج الفكرى الوطنى والدولى.

٤ - الحفظ، ويقصد به المحافظة على مقتنيات المكتبة من الضياع أو التلف.

(٥) محمود الأخرس المكتبة العربية الوطنية - مجلة شئون عربية - العدد ١١.

ثم المكتبة الأكاديمية وتتمثل فى المكتبات الجامعية والمؤسسات التعليمية على مختلف مستوياتها ومهمتها الرئيسية تيسير البحث للدارسين والباحثين.

ثم المكتبة المتخصصة، وهى التى تتخصص فى موضوع معين مثل المكتبة الموسيقية أو القانونية أو التاريخية، أو هى التى تتخصص لفئة معينة مثل مكتبة الصحفيين أو التجاريين أو المهندسين، ثم المكتبة الخاصة وهى مكتبات الأفراد أو العائلات.

من هذا التصنيف لأنواع المكتبات يتبين لنا أن المكتبة الوطنية تعد مؤسسة ثقافية فى المجتمع وأن عليها واجبات وطنية تتمثل فى قيادة العمل المكتبى فى الوطن والمكتبة العامة حق للشعب على الدولة[٦]، ذلك لأن المكتبة أداة للتعليم والإعلام، وكلاهما من الوظائف الأساسية للدولة.

والدكتور أحمد أنور يؤكد قول ستانلى بأن الكتاب أداة، والأداة التى لا تقربها يد الاستعمال ليست سوى حمل سقط، أما إذا كان كتابًا تنحصر قيمته فى ندرته، إذن فقد أصبح تحفة وليس أداة.

إن المكتبة الوطنية والتى تسمى أحيانًا المكتبة القومية تضطلع بإصدار البيبلوجرافيا الوطنية أو القومية، وبإعداد لوائح وأنظمة المكتبات العامة الأخرى فى الوطن، والاتصال والتنسيق مع المكتبات فى خارج الوطن.

وفى الحضارات القديمة كانت المكتبة الشبيهة بالمكتبة الوطنية فى أيامنا هذه قائمة، لقد كانت مكتبة الإسكندرية فى مصر، وكانت مكتبات بابل وآشور نماذج للمكتبات الوطنية فى الحضارات القديمة، وفى الحضارة الإسلامية تأسست مكتبة الحكمة فى بغداد، وفى الأندلس أنشأ المنتصر بالله المكتبة المستنصرية فى العقد السادس من القرن الرابع الهجرى، وفى مصر الفاطمية أنشأ المعز لدين الله الفاطمى دار الحكمة مكتبة عامة عام ٣٩٥ هجريًا، وماتزال الأسماء التى أطلقها العرب فى أيام ازدهار حضارتهم على المكتبات مستخدمة حتى اليوم، مثل دار الكتب، وخزانة الكتب وما شابه ذلك.

وتعد المكتبات الوطنية فى عالمنا المعاصر من مقاييس التقدم ورقى الأمم حضاريًا، ففى مكتبة الكونجرس فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفى مكتبة لينين بالاتحاد السوفيتى، وفى المكتبة الوطنية فى باريس، وفى المتحف البريطانى بلندن.. فى كل هذه المكتبات القومية ثروات هائلة من المعرفة، بل إن التطور فى المكتبات العامة وصل إلى حد تقرير مكافآت مالية للمؤلفين لقاء استعارة كتبهم، ففى عام ١٩٨٢ رأت الحكومة الإنجليزية تخصيص مليونى جنيه إسترلينى سنويًا تدفع إلى الكتاب والروائيين بعد أن وافق البرلمان على قانون جديد اسمه «حق الإعارة» أى أن الكاتب أو الروائى له الحق فى الحصول على مكافأة عن كل مرة يستعير فيها قارئ أو قارئة كتابه من المكتبات العامة، وحتى يكون التوزيع عادلاً سيرصد العقل الإلكترونى هذه الاستعارة.

وقد أورد محمود الأخرس[٧] خبير التوثيق والمعلومات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إحصائية بالمكتبات الوطنية فى الوطن العربى فى العقد التاسع من القرن العشرين الميلادى، استقاها من القوائم التى أرسلتها الأقطار العربية إلى إدارة التوثيق بالمنظمة على النحو التالى:

---

(٦) د. أحمد أنور عمر المكتبات العامة بين التخطيط والتنفيذ - دار النهضة العربية - ١٩٦١.

(٧) محمود الأخرس المكتبة العربية الوطنية - مجلة شئون عربية - العدد ١١.

القطر	اسم المكتبة الوطنية	عام التأسيس	عدد المقتنيات
١ – تونس	دار الكتب الوطنية	١٨٨٥	٥٠٠ ألف
٢ – الجزائر	دار الكتب الجزائرية	١٨٣٥	حوالى ٩٥٠ ألفا
٣ – سورية	دار الكتب الظاهرية	١٨٨٠	٨٥ ألفا
٤ – السعودية	دار الكتب الوطنية	١٩٦٣	٤٠ ألفا
٥ – العراق	المكتبة الوطنية	١٩٦١	حوالى ١٢٠ ألفا
٦ – قطر	دار الكتب القطرية	١٩٦٣	٦٠ ألفا
٧ – لبنان	دار الكتب اللبنانية	١٩٢١	حوالى مائة ألف
٨ – ليبيا	المكتبة الوطنية	حديثة العهد ببنى غازى	
٩ – مصر	دار الكتب	١٨٧٠	حوالى مليون ونصف المليون
١٠ – المغرب	الخزانة	١٩٢٠	٢٣٠ ألفا
١١ – موريتانيا	دار الكتب الموريتانية	١٩٦٥	حوالى ١٠ آلاف

ويعلق محمود الأخرس على تلك الإحصائيات بأن إنشاء المكتبات الوطنية فى عدد من الأقطار العربية سبق غيره من المكتبات الوطنية فى عدد من الأقطار العربية سبق غيره من المكتبات الأخرى، ويعود السبب فى بعض الأقطار إلى اهتمام السلطات الاستعمارية كما هو الحال فى أقطار المغرب العربى، كما يذكر أن دار الكتب الظاهرية فى دمشق تقوم بأعمال المكتبة الوطنية على نطاق ضيق جدًا، وأن دار الكتب الوطنية السعودية تقوم بأعمال المكتبة العامة ولا تنطبق عليها شروط المكتبة الوطنية، ويذكر أن ما يتمتع بقانون الإيداع من المكتبات الوطنية العربية ست مكتبات وحسب فى تونس، والجزائر، والعراق، ومصر، والمغرب، وموريتانيا.

ويطالب عدد كبير من الباحثين العرب بإنشاء مكتبة عربية على المستوى القومى، وهم يلحون فى ذلك لأسباب عديدة منها: عجز المكتبات الوطنية القطرية، وعدم وجودها فى كثير من الأقطار الأخرى، ومنها استطاعة المكتبة العربية على المستوى القومى أن تمد نشاطها خارج الوطن العربى، فتقوم بجمع كافة المطبوعات التى تصدر باللغة العربية فى أى قطر غير عربى، والمؤلفات التى أصدرها المؤلفون العرب بلغات أجنبية، ومنها استطاعة الاهتمام بالتراث العربى الإسلامى الذى مازال مخطوطًا، ويتواقر منه فى العالم حوالى مليون مخطوط عربى، ثلثها فى الأقطار الأجنبية والثلث الثانى فى الأقطار الإسلامية وبخاصة تركيا، والثلث الثالث فى الأقطار العربية، وتستطيع المكتبة العربية على المستوى القومى أن تسهم بدور فعال فى المجال الدولى، وبخاصة فى مجال المنظمات الدولية المتخصصة فى المكتبات والتوثيق، مثل الاتحاد الدولى لجمعيات المكتبات والمؤسسات ، والاتحاد الدولى للتوثيق، والمجلس الدولى للأرشيف، وما شابه ذلك من المنظمات، كما تستطيع بسهولة ويسر أن تحصل على كافة المطبوعات التى تصدر فى البلدان العربية والتى لا تباع فى الأسواق مثل القرارات والقوانين والنشرات ذات التوزيع الخاص.

المكتبات فى الحضارات القديمة:

إذا تتبعنا ظاهرة إنشاء المكتبات فى الحضارات القديمة نجد مكتبة الإسكندرية (القرن الثالث قبل الميلاد) أشهر ما ذكره المؤرخون، وأهم حدث على الإطلاق فى تاريخ المكتبات فى العصور القديمة، ولكن هذه المكتبة الذائعة الصيت ماذا سبقها من مكتبات فى الحضارات القديمة؟.

يرى «الفرد هيسيل»[٨] أن الخطوة المنطقية هى أن نتحرى النموذج الأصلى لهذه المكتبة فى مصر القديمة، فقد كانت مصر مصدر «البردى» مادة الكتابة القديمة، وكان للمصريين إنتاج وافر من الكتابات فى ميادين العلم والأدب، وكانت الكتابة منتشرة فى مصر آنذاك، وكان للمصريين نظام ممتاز من السجلات العامة والمحفوظات، ثم يقرر «هيسيل» أنه برغم كل ذلك فإننا لم نسمع شيئًا عن وجود مكتبات يمكن أن تقارن بمكتبة الإسكندرية، لقد كان للمعابد مكتبات ولكنها كانت للأغراض الدينية والتعليمية، وكانت متصلة بالمحفوظات، وشبيه بهذا النشاط المكتبى فى مصر الفرعونية كان النشاط المكتبى فى الحضارة البابلية والآشورية فى العراق، إن المكتبات الملحقة بالمعابد عند البابليين والآشوريين تحوى كتابات دينية وأخرى أدبية إلى جانب السجلات الإدارية، وأشهر مكتبة فى حضارة ما بين النهرين تلك المكتبة الملكية لآشور بانيبال (القرن السابع قبل الميلاد) الملحقة بقصره، ويذكر المؤرخون أنه كان حفيًا بالثقافة، وأنه كان على قدر كبير من التعليم حتى أنه كان يفخر بأنه يستطيع أن يقرأ النقوش الحجرية التى ترجع إلى ما قبل الطوفان، وقد شغف بجمع آداب ووثائق وعلوم بابل وآشور إلى جانب النصوص الدينية وأصدر أوامره الملكية باستنساخ هذه الآداب بعناية، ورتبت فى مكتبته ترتيبًا دقيقًا، وكانت مكتبة آشور بانيبال فى نينوى مكتبة عالمية بمقياس عصرها، كما كانت مكتبة الإسكندرية، ولكن الأخيرة تتفوق عليها فى كافة الوجوه، ولم يصل الباحثون من رجال الآثار والتاريخ إلى إجابة عن السؤال: هل كانت هناك علاقة بين مكتبة الألواح الفخارية فى نينوى ومكتبة لفائف البردى فى الإسكندرية؟.

وفى الحضارة اليونانية القديمة نلحظ ظاهرة جديرة بالاهتمام هى أن الكتاب كان تجارة رائجة قبل أن يفكر المجتمع فى إنشاء المكتبات، ومع بداية القرن الرابع قبل الميلاد، وفى الفترة التى شملت نشاط المفكرين العملاقين أفلاطون وأرسطو، أصبحت المكتبات الخاصة أمرًا شائعًا بين كبار العلماء والأدباء والفلاسفة، ثم كانت مكتبة الأكاديمية أشمل مكتبات اليونان القديمة.

وامتدادًا للحضارة اليونانية القديمة كانت مصر البطلمية، وكانت مكتبة الإسكندرية، تلك المكتبة التى امتد نشاطها ليشمل ما يشبه مراكز البحوث ودور النشر الكبرى فى عالمنا المعاصر، كانت النصوص اليونانية توثق وتدرس دراسة منظمة فى مكتبة الإسكندرية، ومن ثم يمكن الحكم بصحة نسب الكتب إلى مؤلفيها أو بطلان النسب، وكانت المكتبة تقوم بإنتاج عدد كبير من نسخ الكتب تطرح للبيع، وكانت تجارة الكتب احتكارًا لها ولمتحف الإسكندرية وظل هذا الاحتكار حتى أيام قيصر، ويذكر المؤرخون جوانب عن فصارس مكتبة الإسكندرية إنها كانت تحوى قوائم للشعراء وأخرى للكتاب،

---

(٨) الفريد هيسيل تاريخ المكتبات (ترجمة د. شعبان خليفة) – دار الثقافة للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٧٢ ص ٢ وما بعدها.

وأن قوائم المؤلفين كانت مرتبة ترتيبًا أبجديًا، ولكل مؤلف ترجمة مختصرة له ويتبع ذلك ثبتا بمؤلفاته، أما تصنيف الكتب فكان يحوى عنوان الكتاب واستهلاله وعدد أسطره، وبقيت هذه الفهارس اللوحية تحتل منزلة رفيعة وكانت أساس جميع الأعمال البيلوجرافيا فى العالم القديم.

ومع انتصار الرومان على اليونان فى العصور القديمة أخذ القواد الرومانيون - القرن الثانى قبل الميلاد - يأتون إلى بلادهم بالمكتبات اليونانية فيما يأتون من أسلاب، وما كاد القرن الأول قبل الميلاد يقترب من نهايته حتى كان حب الكتب قد انتشر بين الأرستقراطية الرومانية، وكان «شيشرون» يعتز بمجموعة كتبه اعتزازًا كبيرًا ويعتبرها درة بيته، وكان صديقه «أتيكوس» أول الناشرين الرومانيين الكبار حتى لقد وجد فى نفسه الجرأة لينافس الإسكندرية فى تجارة الكتب، ثم بدأ القياصرة فى إنشاء المكتبات وفى بداية القرن الرابع الميلادى أصبحت المكتبات العامة فى روما ثمانية وعشرين مكتبة، وحاولت المدن الإيطالية أن تحذو حذو روما فى مجال المكتبات، وكانت عادة كبار القوم فى العصر الرومانى أن يمتلكوا مكتبات فى قصورهم، وأن يحتفظ أثرياؤهم بعدد من العبيد المتعلمين لينسخوا لهم الكتب.

المكتبات فى العصور الوسطى:

إن التاريخ الواقعى لا يخضع دائمًا لسياق التجريد العلمى، لذلك فالمؤرخون ليسوا متفقين على بداية العصور الوسطى ولا على نهايتها، ولكن بصفة عامة، كذلك فإن مثل هذه المصطلحات الأوربية لا تعنى المدلول نفسه بالنسبة للوطن العربى فالعصور القديمة أو الوسطى فى أوربا ليست قديمة أو وسطى عند العرب، وبرغم ذلك التحفظ فإننا نستخدم التعبير الأوربى باعتباره التعبير السائد ونحن نؤرخ للمكتبات.

كيف أصبحت المكتبات فى القرون الوسطى؟ حل الرق محل البردى فى مادة الكتابة، وترتب على ذلك تغير الشكل المادى للكتاب من لفائف البردى إلى مخطوطات الرق ذات غلاف يابس على هيئة الكتب الحديثة، ولكن المكتبة لم يطرأ عليها الكثير من التغيير ففى خزائن كتب البردى حفظت الكتب فى شكلها الرقى، ونظرًا لمزايا الرق فى قوة الاحتمال، وفى إمكان الكتابة على الوجهين نقلت كتب من لفائف البردى إلى الرق، ويرجح «الفريد هيسيل» فى حديثه عن المكتبات فى العصور الوسطى «أن الشكل الرقى للكتاب كانت تدعو إليه المسيحية وهى القوة الدينية الصاعدة إذ ذاك، بينما تمسكت الوثنية وهى فى موقف دفاع بالشكل القديم المألوف، ولعل التنافس بين المكتبتين المسيحية والوثنية وقع فى نفس هذا الوقت»[٩].

وأصبحت المكتبات بعد انتشار المسيحية ملحقة بالكنائس والأديرة، وخلال العصور المسيحية الأولى تمكن الرهبان فى الشرق من نسخ عدد كبير من المخطوطات، باعتبار أن ذلك عملًا دينيًا، ومن شعارات العصور الوسطى ذات الدلالة فى مجال أهمية المكتبات فى الأديرة بصفة عامة قولهم إن الدير بدون خزانة كتب مثل القلعة بغير سلاح.

وابتداء من العصور الوسطى المتأخرة بدأ نوع من التغيير فى الحياة الثقافية الأوربية، ويتركز هذا

---

(٩) المرجع السابق ص ١٥.

التغيير فى تحرير العلمانيين أنفسهم من سلطان الكنيسة، وكان طلائع هؤلاء المتحررين من النبلاء أبناء المدن الكبيرة الجديدة، والحياة الأرستقراطية الأوربية الميالة للأدب وبخاصة الشعر. وقد انعكس ذلك كله على مكتبات القرون الوسطى المتأخرة، وبخاصة مع ظهور الجامعات فى أوربا، وظهور السوق التجارى للكتاب، وأصبحت المكتبات تتجه أساسًا إلى خدمة المعرفة ومعاهد الدراسة بطريقة أكثر عما كان فى أوائل القرون الوسطى، وأصبحت الملحقة بالأديرة والكاتدرائيات والكنائس.

المكتبات فى عصر النهضة:

يرى «الفريد هيسيل» أن مبدأ فتح المكتبات للاستعمال العام من أهم الخصائص التى تميزت بها مكتبات عصر النهضة عن مكتبات العصور الوسطى، وإلى جانب ما يراه «هيسيل» فإن مكتبات عصر النهضة شهدت الكتاب المطبوع إلى جانب الكتاب المنسوخ، ولكن ما هى آثار الطباعة فى تطوير المكتبات. يجيب «هيسيل» بأن الأثر الأول هو انفصال العلاقة بين المناسخ والمكتبات إلى الأبد. فلقد كانت المكتبات والمناسخ مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بعضها ببعض من العصور القديمة إلى العصور الوسطى ثم فى أوائل عصر النهضة أما فى القرن السادس عشر وبسبب انتشار الطباعة انفصمت العلاقة بين صانعى المخطوطات وجامعيها إلى الأبد، والأثر الثانى من آثار الطباعة فى تطوير المكتبات يتمثل فى الزيادة الهائلة فى إنتاج الكتب، وما تبع ذلك من ظهور العديد من المشاكل المكتبية غير المتوقعة وأولها تغيير نظام ترتيب الكتب.

ولقد شهد القرن السادس عشر إهمال وضياع الكثير من المكتبات الكنسية فى ألمانيا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا، وفى المقابل بدأت نشأة مكتبات البلديات فى المدن الأوربية تلك المكتبات التى يمكن اعتبارها مكتبات عامة برغم أن فئة متميزة كانت تمثل روادها، وشهد القرن السادس عشر أيضا طريقة وضع الكتب على الرفوف الحائطية، كما شهد الإسراف فى فخامة تجليد الكتب، أما القرن السابع عشر فقد شهد الاهتمام بالتصنيف وبالكتب العلمية، وفى القرن الثامن عشر ألحقت خزانة الوثائق ببعض المكتبات الكبرى.

المكتبات فى العصر الحديث:

لعل أهم ظاهرة فى العصر الحديث تتعلق بالمكتبات هى نشأة المكتبات الوطنية، تلك الظاهرة التى تتركز فى نشأة مكتبة رئيسية فى الوطن تسمى المكتبة الوطنية أو القومية أو الأهلية، والتى ترتبط بصدور قوانين الإيداع القانونى لما ينشر من كتب فى تلك المكتبة، وأوضح مثلين للمكتبات القومية فى العصر الحديث هما: المتحف البريطانى فى لندن British Museum والمكتبة الوطنية الفرنسية فى باريس Biblitheque National ثم تلحق بهما تاريخيًا مكتبة الكونجرس الأمريكى فى واشنطن Library of Congress ولكنها تفوقهما الآن قدرة واتساعا.

ويعد المتحف البريطانى من أشهر المكتبات الوطنية فى عالمنا المعاصر، والذى يرجع تاريخ افتتاحه إلى عام ١٧٥٩ لكل راغب فى الدرس والاطلاع كما نص قانونه بذلك، ومنذ إنشائه كانت مقتنياته تنمو باطراد من الهبات الكبيرة مثل مكتبة الملك جورج الثالث، ومن القوانين التى يصدرها البرلمان بين

الحين والآخر بإضافة مجموعات من المكتبات إليه، ولكن الانطلاقة الكبرى للمتحف باعتباره مكتبة وطنية كبرى جاءت على يد أمين متحمس يدعى أنطونى بانيتزى Antony Panizzi الذى جعل مقتنياته تصل إلى مليون مجلد فى عام ١٨٧٠.

وفى باريس تعد المكتبة الوطنية محصلة جهود طويلة فى سبيل إنشاء مكتبة وطنية فى فرنسا، فمنذ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ صدر قانون فى نوفمبر من العام نفسه يجعل مكتبات الكنائس ملكًا للدولة، وبعد ثلاث سنوات صودرت مكتبات النبلاء والأرستقراطيين المهاجرين خارج فرنسا، ثم مع غزوات نابليون عادت الجيوش الفرنسية المنتصرة من هولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا بالكثير من الكتب القيمة إلى باريس.. كل هذه الروافد للكتب صبت فى المكتبة الوطنية التى صدر لها قانون فى عام ١٨٠٥ يقضى بإكمال مجموعاتها من مقتنيات المكتبات الأخرى فى فرنسا، ثم بصدور قوانين الإيداع القانونى لما يطبع من كتب فى فرنسا، وعندما توسعت المكتبة الأهلية فى باريس أكثر وأكثر اقتفت فى مبناها النمط المعمارى للمتحف البريطانى، وكان حماس الأمناء المتعاقبين فى الفهرسة والتصنيف والتنظيم عاملًا مساعدًا لتأخذ المكتبة موقعها المرموق عالميًا.

إن أكبر مكتبة وطنية فى عالمنا المعاصر هى مكتبة الكونجرس الأمريكى، تلك التى أنشئت فى عام ١٨٠٠ ثم لحقتها الكوارث بالحريق عام ١٨١٤ حين غزا الجيش البريطانى واشنطون فدمرها تمامًا ثم أعيد إنشاؤها، ولكن الحريق الثانى داهمها عام ١٨٢٥ ثم الحريق الثالث عام١٨٥١، ولكنها انتقلت إلى مبنى جديد عام ١٨٩٧ وكانت مجموعاتها تبلغ ٨٠٠ ألف مجلد و٢٠٠ ألف نشرة، وفى عام ١٨٩٦ عين لها أمين معاصر يدعى هربرت بوتنام الذى ظل ينميها حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٣٩ وقد بلغت مجموعاتها ستة ملايين مجلدًا.

وتقع مكتبة الكونجرس فى قلب واشنطن العاصمة فى مواجهة مبنى الكونجرس، وتحوى ثلاثة مبانى ضخمة، وقد زادت محتوياتها فى مطلع العقد التاسع من القرن العشرين عن عشرين مليون كتاب، مصنفة داخل أجهزة الكمبيوتر، وقد تأسس فى عام ١٩٤٥ قسم خاص بالشرق الأوسط فى المكتبة يضم معظم الكتب التى تصدر فى البلدان العربية وتركيا وإيران وأفغانستان، وتزود الكتب العربية فى مكتبة الكونجرس كل عام بمعدل ألف كتاب أو أكثر هذا إلى جانب الصحف والدوريات التى تصدر فى الوطن العربى، ومن المعروف أن مكتبة الكونجرس تضم مقتنيات بحوالى ٤٠٠ لغة وأنها تشبه مرصدًا أرضيًا لما ينشر فوق الكرة الأرضية من كتب ودوريات، ومخزنًا متجددًا لأهم ما يصدر فى العالم.

القارئ:

لا يمكننا أن نتحدث عن توزيع الكتاب دون الحديث عن القارئ لأنه «المستقبل» أى «المتلقى» لوسيلتنا الإعلامية «الكتاب»، ولقد أجريت بحوث عديدة فى بلدان العالم عن عادات القراءة وأحوال القراء، وقامت «أراك» فى مصر ببحث من هذا القبيل فى العقد السابع من القرن العشرين انصب أغلبه على قراء الصحف، ولم يلحق به بحث آخر بعد ذلك، وفى الحلقة الدراسية التى أقامتها اليونسكو فى القاهرة خلال فبراير ١٩٧٨ عن إنتاج وتوزيع الكتاب العربى تناول البحث الذى قدمه الدكتور

محمود بازرعة[١٠] أهمية دراسة السوق لنجاح تسويق الكتاب العربى، وأشار بأن مثل هذه الدراسة تهدف إلى تحديد نوعية الطلب على الكتاب، وخصائص المستهلكين الحاليين والمرتقبين، كما أنها تشمل أيضا تحديد حجم الطلب المتوقع، والذى على ضوئه تتحدد الكميات المطبوعة. وقال إنه للقيام بهذه الدراسات يمكن الاعتماد على المصادر الأولية للبيانات والمصادر الثانوية لها. وللقيام بجمع البيانات من مصادرها الأولية فإنه يمكن أن يتم ذلك عن طريق الاستقصاء أو الملاحظة. ويتطلب ذلك إعداد قوائم الأسئلة والملاحظة واختيار المقابلين (الباحثين) وتدريبهم والإشراف عليهم، وتحديد المجتمع الذى ستتم عليه الدراسة، وتحديد نوع وحجم العينة، واختيار مفردات العينة من مجتمع البحث، ويتطلب تحليل البيانات الاعتماد على أسلوب التقدير الإحصائى، وعلى أسلوب اختيار معنوية الفروق.

ويتم اختيار نوع السوق وفقًا لتحديد استراتيجيات القراء، حيث يفاضل الاقتصاديون ويقارنون بين السوق المعممة Undifferentiated Marketing وتعنى نشر الكتب بشكل واحد وبنفس الموضوعات لجميع القراء فى السوق، وبين التركيز Concentration وتعنى تركيز دار النشر على أحد أجزاء السوق وقصر النشر لها، ثم مقارنة ذلك بتجزئة السوق Market Segmentation وتعنى تجزئة السوق وفق خصائص القراء المتنوعين من حيث السن والجنس والتخصص والمهنة والمرحلة الدراسية والدخل وما إلى ذلك، ثم نشر مجموعة من الكتب تضع فى الاعتبار هذه الخصائص.

والقارئ مع الكتاب فى حالة مختلفة عن المستمع مع الراديو أو المشاهد مع التليفزيون، إن القارئ طرف فى العملية الإعلامية ذو فاعلية وديناميكية خاصة، يقول «سارتر»[١١] إن المرء حين يقرأ يكون فى حالة تنبؤ وانتظار، فهو يتنبأ بنهاية الجملة، وبالجملة التالية، وبالصفحة بعدها، وهو منتظر أن يؤكد تلك الصفحات بتنبؤاته أو ينفيها، فالقراءة تتألف من عدد جم من الفروض، ومن أحلام متلوة بيقظة، ومن ضروب من الأمل واليأس، والقراء سباقون على الجمل التى يقرءونها، يتقدمون فى ذلك نحو مستقبل محتمل ينهار فى بعض أركانه أو يرتفع كلما تقدموا فى القراءة.

ويضيف بأنه لا يصح أن نعتقد أن القراءة عملية آلية يتأثر بها القارئ بالحروف المكتوبة كما تتأثر لوحة آلة التصوير بما ينعكس عليها من ضوء، فإذا كان القارئ شارد اللب أو متعبًا أو أحمق أو مضطرب الفكر، أعياه إدراك كثير من العلاقات المصورة فى العمل الأدبى، فلا يصل إلى درجة إشراق الموضوع فى نفسه كما تتقد النار، وفى هذه الحالة يعى بعض الجمل التى تتراءى لعينه فى ظلام الغموض، وكأنها تنظيم عن طريق الصدفة، أما إذا كان القارئ فى خير حالاته، فإنه سيجلو لنفسه من وراء الكلمات صورة مركبة لا تعدو كل جملة فيها أن تكون ذات وظيفة جزئية، وتمثل هذه الصورة فى القضية التى يريد الكاتب نفيها أو إثباتها، أو فى الموضوع أو فى المعنى العام».

هذه العلاقة الحميمة بين القارئ والكتاب هى مفتاح توزيع الكتب إذا تضافرت أطراف صناعة النشر لتحقيق النجاح، وهذا التضافر والتعاون بين الأطراف المشتركة فى إنتاج الكتاب هو الذى جعل

---

(١٠) حلقة دراسية عن مشكلات إنتاج الكتاب العربى بالقاهرة من ١ – ١٠ فبراير ١٩٧٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب بالتعاون مع منظمة اليونسكو.

(١١) جالأ ول سارتر ما الأدب؟ (ترجمة د. محمد غنيمى هلال) – مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٧١ – ص ٤٨ – ص ٥١.

رئيس نقابة الناشرين الفرنسيين فى العقد التاسع من القرن العشرين يقول إن قضية احتياجات القراء من مصنفات هى قضية التوزيع، ونجاح كتاب دون آخر مهما اختلفت قيمته يتوقف على عوامل كثيرة منها الطباعة والتوزيع والدعاية والتوقيت والتقييم.

بهذه الاعتبارات المختلفة نقول إن القارئ هو هدف التوزيع، وأنه كلما تيسرت الدراسات عن القارئ وميوله واتجاهاته كلما حقق موزعو الكتب النجاح.

obeikandl.com